تاسعاً: آثار دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية

obeikandl.com

obeikandl.com

تاسعاً: آثار دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية

١ – دخول أعداد كبيرة من النصارى في الإسلام:

فمن ذلك مثلاً على مستوى القادة والعلماء النصارى إسلام أحد ملوكهم في شرق الدولة الإسلامية على يد الشيخ مختار بن محمود الزاهدي[١]، وإسلام كاتب الديوان في بغداد واسمه جبرائيل بن منصور ت ٦٢٦هـ [٢] ويحي بن عيسى بن جزلة الطبيب البغدادي المتوفيَّ سنة ٤٩٣هـ[٣]، وكاتب الإنشاء للملك العادل ويقال له: ابن النحال حيث أسلم على يديه في حلب [٤]، وشيخ نصراني ذو أتباع أسلم على يد أبي شامة المقدسي سنة ٦٦١هـ [٥] ومن مقدمي الصليبيين الذين اعتنقوا الإسلام عدد من فرسانهم انضموا إلى جيش صلاح الدين معلنين اعتناقهم الدين الإسلامي [٦]، وفارس صليبي يدعى روبرت أوف سانت ألبانس أحد مقدمي فرسان المعبد أسلم سنة ١١٨٥م/٥٨٠هـ وتزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين [٧]، بل إن ابني

(١) الرسالة الناصرية ص ٥٦ دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٤/٢).
(٢) البداية والنهاية (١٣٥/١٣) دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٤/٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٨٨/١٩).
(٤) كتاب الروضتين (٥٢/٢) دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٤/٢).
(٥) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد ص ١١١.
(٦) المصدر نفسه ص ١١١ دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٤/٢).
(٧) الدعوة إلى الإسلام ص ١٠٨ دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٤/٢).

أخت الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد هربا من معسكر الفرنج، والتحقا بجيش صلاح الدين معلنين اعتناقهم الإسلام وذلك سنة ٥٨٧هـ.. حيث أكرمهما، وفارس صليبي مشهور يدعى رانيود أسلم وانضم بفرقته العسكرية إلى المسلمين [١]، وكان سفير سلطان مصر إلى الملك الصليبي لويس إفرنجيا اعتنق الإسلام وصار ذا مكانة عند السلطان [٢].

وأما اعتناق رجال الدين النصارى للإسلام فإن هناك إشارات تدل على كثرتهم في هذه الفترة، فمن ذلك مثلاً: إسلام الراهب عبد الله الأرمني على يد الشيخ عبد الله اليونيني المتوفي سنة ٦١٧هـ وكان زاهداً ورعاً فيه تصوف [٣]، حيث أسلم أيضاً على يد عبد الله الأرمني راهب آخر كان معتزلاً في صومعة له[٤]وإسلام أحد علماء النصارى على يد الشيخ مختار بن محمود الزاهدي في خوازم [٥]، وإسلام عبد الواحد الصوفي ت ٦٣٩هـ والذي كان قساً في كنيسة مريم بدمشق نحواً من سبعين سنة[٦]، وكذلك إسلام دانيال أسقف خابور في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي [٧]، وقد أشار توماس أرنولد نقلاً عن بعض المصادر اللاتينية إلى خلو كثير من الأسقفيات القبطية في بداية القرن الثالث عشر الميلادي في مصر

(١) مذكرات جوانفيل ص ١٦٨.
(٢) البداية والنهاية (١٣/١٠٠ - ١٠١).
(٣) المصدر نفسه (١٣/١٥٢ - ١٥٣) دعوة المسلمين للنصارى (٢/٧٤٥).
(٤) دعوة المسلمين للنصارى (٢/٧٤٥).
(٥) البداية والنهاية (١٣/١٦٩) دعوة المسلمين للنصارى (٢/٧٤٥).
(٦) الدعوة إلى الإسلام ص ١٠٧ دعوة المسلمين للنصارى (٢/٧٤٥).
(٧) الدعوة إلى الإسلام ص ١٠٧ دعوة المسلمين للنصارى (٢/٧٤٥).

من الأساقفة فمثلاً: في دير القديس مكاريوس وحده لم يبق غير أربعة من القسس بعد أن كان عددهم تجاوز الثمانين في عهد البطريق السابق [١]، بل إن بعض رجال الدين الصليبيين المبشرين الفرنسيسكان الذي أرسل إلى إفريقية لهذه المهمة فعاد مسلماً [٢]، وقد ذكر توماس آرنولد نقلاً عن بعض المصادر الغربية كثرة اعتناق القساوسة الصليبيين الإسلام في هذه الفترة [٣].

أما اعتناق الإسلام من قبل عامة النصارى فإنه لا إشكال أن العراق وبلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا والأندلس وغيرها من البلاد كانت الديانة الغالبة فيها قبل ظهور الإسلام هي النصرانية، ومع انتشار الإسلام دخل الناس فيه من أهل هذه البلاد أفواجاً حتى أصبح الإسلام دين الغالبية، وأصحاب الديانات الأخرى أقلية بالنسبة إليه [٤]، وفي عصر الحروب الصليبية كانت هناك تحولات كبيرة من هذه الأقلية النسبية خاصة من النصارى إلى الإسلام حيث يدل على ذلك: الإشارات المتناثرة في المصادر والمراجع المختلفة، فمن ذلك مثلاً قول سبط ابن الجوزي:.. سمعت جدي على المنبر يقول: بأصبعي هاتين كتبتُ ألفي مجلدة، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرون [٥]ألفاً. وأسلم على يدي نحو مائتين من أهل الكتاب [١]، وفي عهد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله - ولحسن

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٦٢٩ دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٥/٢).
(٢) الأوضاع الحضارية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ص ٢٣٣.
(٣) الدعوة إلى الإسلام ص ١١٢ دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٦/٢).
(٤) دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٦/٢).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢٧٠/٢١).
(١) دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٦/٢).

معاملته لأقباط مصر- تحول أعداد كبيرة منهم إلى الإسلام كما ذكر ذلك أحد مؤرخيهم [١]. وقد قال توماس آرنولد عن كثرة اعتناق القبط للدين الإسلامي:" ولكثرة عدد القبط الذين كانوا يعتنقون الإسلام من حين إلى حين أخذ أتباع النبيّ يعتبرونهم أشد ميلاً لقبول الدين الإسلامي من أية طائفة أخرى" [٢]، وبين أنه حتى القرن التاسع عشر الميلادي لم تخلُ سنة من السنوات لم يتحول فيها القبط إلى الإسلام [٣]أما إسلام العامة من النصارى الصليبيين فكان كثيراً جداً في هذه الفترة، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره توماس آرنولد نقلاً عن بعض المصادر الغربية أنه في الحملة الصليبية الأولى انفصلت جماعة كبيرة من الألمان وغيرهم من الطائفة الرئيسية لتنضم إلى الجيش السلجوقي المسلم معتنقة الإسلام[٤]، وفي الحملة الصليبية الثانية انضمت فرقة كبيرة من الجيش الصليبي قوامها أربعة آلاف مقاتل تقريباً إلى جيش المسلمين وذلك بعد فشل هذه الحملة، ولحسن المعاملة التي قوبلت بها هذه الفرقة اعتنق عدد كبير من أفرادها الإسلام بمحض إرادتهم وذلك سنة ٥٤٢هـ - ١١٤٨م [٥]. وكذلك كانت أخلاق صلاح الدين - رحمه الله تعالى - وحسن معاملته للنصارى الصليبيين دافعاً لأعداد كبيرة منهم إلى اعتناق الإسلام كما حدث بعد معركة حطين[١]بشكل خاص، وقد قال أحد الكُتَّاب

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ١٣٠ دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٦/٢).
(٢) دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٧/٢).
(٣) المصدر نفسه (٧٤٧/٢).
(٤) الدعوة إلى الإسلام ص ١٠٨ دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٧/٢).
(٥) المصدر نفسه ص ١٠٩ دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٧/٢).
(١) شفاء القلوب في أخبار بني أيوب ص ١٢١.

الغربيين عن ذلك:".. حتى أن نفراً من الفرسان المسيحيين بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية" [١]ونقل توماس آرنولد عن بعض المصادر الغربية أنه في الحملة الصليبية الثالثة انضمت أعداد كبيرة من الجيش الصليبي إلى المسلمين حيث اعتنق البعض منهم الإسلام، وقد ساق توماس شهادة مؤرخ غربي رافق هذه الحملة على ذلك، حيث قال هذا المؤرخ:". وفريق من رجالنا.. تراهم يهجرون بني جلدتهم ويفرون إلى الأتراك فلم يترددوا أن يصبحوا في زمرة المرتدين، ولكي يطيلوا أعمارهم الموقوته زمناً قصيراً اشتروا موتاً أبدياً بهذا الكفر المفزع" [٢].

وقد أشار توماس نفسه إلى كثرة تحول الصليبيين إلى الإسلام في فترة الحروب الصليبية حيث قال:" ولكن بانتهاء القرن الحادي عشر الميلادي انضم إلى أهالي الشام وفلسطين من المسيحيين عنصر جديد يتألف من هذه الجموع الهائلة من الصليبيين الذين كانوا يدينون بشعائر الأمم اللاتينية.. وظلت تعيش مهددة قرابة قرنين من الزمن، وفي غضون هذه الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات إلى الإسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغرباء" [٣]وقال أيضاً:"... وكان عدد المرتدين عن المسيحية في القرن الثالث عشر الميلادي كثيراً كثرة نلاحظها في سجلات الصليبيين القانونية التي يطلق عليها مجالس قضاء بيت المقدس" [١]، ومما يدل على كثرة اعتناق

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ١١١ دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٧/٢).
(٢) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد ص ١١١.
(٣) الدعوة إلى الإسلام ص ١١٢ دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٨/٢).
(١) الدعوة إلى الإسلام ص ١١٠ دعوة المسلمين للنصارى (٧٤٨/٢).

النصارى من الصليبيين الإسلام في هذه الفترة فزع أحد قساوستهم في الشام من ذلك وإرساله رسائل إلى البابا ورجال الدين في أوروبا يطلب فيها ألا يرسلوا الضعفاء والفقراء لأنهم أكثر عرضة لأن يفتنهم المسلمون فيعتنقوا الإسلام [١].

٢ – تأثر النصارى بعادات المسلمين وأخلاقهم وتقاليدهم:

فمن ذلك مثلاً ما يتعلق باللباس والذي كان في غالب الأحيان لدى نصارى البلاد الإسلامية لا يختلف عن لباس المسلمين، فقد كان أحد الأساقفة الصليبيين والذي بعث إلى عكا قد أرسل إلى البابا في روما اشتكى فيها تشبه النصارى الصليبيين بالمسلمين في زيهم وطريقة حياتهم[٢]وحتى بعض النصارى من الصليبيين كانوا يتشبهون بالمسلمين بالزي واللباس، فمن ذلك مثلاً تقليد النساء الصليبيات لنساء المسلمين بالحجاب واللباس المحتشم. حيث قال أحد الكتاب الأوروبيين في ذلك!.. وكانت النساء الصليبيات يقلدن المسلمات في لبس الحجاب الذي يضفي على المرأة الحشمة والوقار [٣]. ومن عادات المسلمين التي اكتسبها النصارى الصليبيون في هذه الفترة النظافة- وكانت ليست بذات أهمية لديهم- وقد نقل أحد الباحثين رأيا في ذلك لمؤرخ أوروبي معاصر لفترة الحروب الصليبية وهو قوله: ولكنهم - أي الصليبيين - يعيشون كالحيوانات، ولايغسلون أبدانهم ولا ثيابهم التي لا ينزعونها إلا إذا تمزقت [١]وبعد

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ١١٠ دعوة المسلمين للنصارى ٧٤٨/٠٢).
(٢) الأوضاع الحضارية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ص ٩٧ - ٩٨.
(٣) تاريخ الحروب الصليبية (٥٠٩/٢).
(١) دعوة المسلمين للنصارى (٧٥١/٢).

مخالطة الصليبيين للمسلمين اكتسبوا هذه العادة الحميدة فتردد الكثيرون منهم على الحمامات العامة المنتشرة في الشام ومصر حتى الرهبان والراهبات الذين يعتكفون في كنائسهم وأديرتهم، مما جعل أحد مقدميهم واسمه جاك دوفتري يحتج على الراهبات لخروجهن من الأديرة مخالفات بذلك تعاليم شريعتهم ليذهبن إلى الحمامات العامة [١]وقد ساق أسامة بن منقذ نماذج على استغرابهم اهتمام المسلمين بالنظافة ومحاولتهم التشبه في ذلك وترددهم على الحمامات العامة للمسلمين رجالاً ونساءً لهذا الغرض [٢]، ومن العادات الإسلامية التي اكتسبها الصليبيون النصارى الغيرة على النساء وكانت هذه الغيرة مفقودة جداً لديهم حيث قال أسامة بن منقذ في سياق عرضه لمشاهداته وقائع في حياتهم وعرضه لنماذج منها تدل على ذلك بقوله:.. ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدثا معا والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث فإذا طولت عليه خلالها مع المتحدث وتركها ومضى [٣]، وقد أشار أحد الباحثين إلى تغير هذه العادة القبيحة نسبياً في الجيل الثاني من الصليبيين بعد إقامتهم في البلاد الإسلامية [٤]، ومن الصليبيين من تشبه بالمسلمين حتى في الطعام فترك أكل الخنزير مثلاً [١]، ومن أهم ما اكتسبه بعض الصليبيين النصارى من المسلمين لين الطباع

(١) المصدر نفسه (٧٥١/٢).
(٢) الاعتبار ص ١٣٦ - ١٣٧ دعوة المسلمين للنصارى (٧٥٢/٢).
(٣) المصدر ص ١٣٥ المصدر نفسه (٧٥٢/٢).
(٤) العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ١٩٢.
(١) الاعتبار ص ١٤٠ دعوة المسلمين للنصارى (٧٥٢/٢).

وحسن التعامل وهذا ما لاحظه أسامة بن منقذ من خلال تعامله معهم وسبره لهذا الجانب فيهم بين من قدموا حديثاً من بلادهم وبين من عاشروا المسلمين وتعاملوا معهم واكتسبوا شيئاً من أخلاقهم حيث قال أسامة عن ذلك: فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين [١].

ومن المعروف في النصرانية تحريم التعدد بزعمهم ومع ذلك فبعضهم قلد المسلمين وتزوج أكثر من واحدة خاصة بعض زعمائهم وقوادهم [٢]، ومن مظاهر تأثر كثير من النصارى بالمسلمين في هذه الفترة اتجاه كثير منهم إلى تعلم اللغة العربية [٣]. فالصليبيون في الشام اهتموا بذلك فكان بعض قادتهم يتحدث العربية كريموند صاحب طرابلس وبعضهم وضع له قارئاً بها كصاحب صيدا [٤]وحرص بعض قادتهم كذلك على أن يتعلم موظفوه ومَن تحت يده في بعض الأعمال اللغة العربية كما في موظفي الجمارك في عكا والذين قابلهم ابن جبير في زيارته للشام في هذه الفترة [٥]، وأسامة بن منقذ كان يربطه مع بعض فرسان الفرنج نوع من الصداقات، وكان يتعامل معهم وهو لا يجيد لغاتهم مما يدل على أن منهم أعداداً تتحدث باللغة العربية [١]. وفي الأندلس كان تأثر النصارى باللغة العربية - لغة المسلمين - أكثر وضوحاً، إذ صارت هي لغة الحياة

(١) المصدر نفسه (٧٥٣/٢).
(٢) المصدر نفسه (٧٥٣/٢).
(٣) المصدر نفسه (٧٥٣/٢).
(٤) المصدر نفسه (٧٥٣/٢).
(٥) رحلة ابن جبير ص ٢٧٥ - ٢٧٦.
(١) الاعتبار ص ٨٧ دعوة المسلمين للنصارى (٧٥٣/٢).

العامة في المجتمع الأندلسي [١]، وهكذا فكما أن الشخص لا يتأثر بشيء ويقلده إلا من باب الإعجاب به والاقتناع بقيمته فإن بعض النصارى بتشبههم بالمسلمين في بعض الصفات وتأثرهم بها دليل على الإعجاب بها ونوعاً من الرضا عنها واعترافاً ضمنياً بقيمة الدين الذي جاء بها وحثَّ عليها [٢].

٣ – تحسن نظرة كثير من النصارى للإسلام والمسلمين:

وقد نقل توماس آرنولد عن بعض الكتاب الغربيين ما يؤيد ذلك، كقول أحدهم:"... ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالي هذه البلاد قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين". [٣]وقول أحدهم:.. ويظهر أن أهالي فلسطين من المسيحيين لما وقع بيت المقدس في أيدي المسلمين نهائياً سنة ٦٤١ هـ - ١٢٤٤م رحبوا بالسادة الجدد واطمأنوا إليهم ورضوا بحكمهم"[٤]، كذلك الحال بالنسبة لكثير من نصارى آسيا الصغرى في هذه الفترة الذين فضلوا حكم السلاجقة المسلمين على سيطرة إخوانهم من النصارى من البيزنطيين [٥]، أما بالنسبة للنصارى الصليبيين فقد تغيرت نظرتهم للإسلام والمسلمين نتيجة للجهود الدعوية المختلفة الموجهة إليهم في هذه الفترة فمثلاً أن أحد رسلهم ويدعى بركارد حينما قابل صلاح الدين سنة ٥٨٠هـ/١١٧٥م عاد إلى قومه وأخبرهم بما لاحظه من أن المسلمين

(١) المسلمون في تاريخ الحضارة ص ٧٩.
(٢) دعوة المسلمين للنصارى (٧٥٤/٢).
(٣) الدعوة إلى الإسلام ص ١١٦.
(٤) دعوة المسلمين للنصارى (٧٥٤/٢).
(٥) المصدر نفسه (٧٥٥/٢).

يؤمنون بإله واحد خالق كل شيء، وأن محمداً ﷺ نبيّ مرُسل من الله جلّ وعلا، ومن مظاهر تغير هذه النظرة الحاقدة لدى النصارى تجاه المسلمين وجود نوع من الصداقات بين المسلمين والنصارى، ومن ذلك مثلاً ما كان لأسامة بن منقذ من أفراد منهم يعدهم أصدقاء له وكانوا يمكنونه من الصلاة في المسجد الأقصى حينما كان تحت سيطرة النصارى [١]، وابن جبير الذي زار المنطقة في هذه الفترة رأى عرساً إفرنجياً حضره جمع من المسلمين، وكان من مشاهداته أن بعض النصارى إذا رأى أحداً من المسلمين انقطع للعبادة أتوه بالماء والزاد [٢]، بل إنه في بعض جبهات القتال لطول المخالطة والمواجهة بين الفريقين أنس البعض بالبعض بل وتجري في بعض الأحيان ألعاب ومسابقات على سبيل الترفيه بين الطرفين[٣]، وكان التجار المسلمون والنصارى على حال من الاختلاط والمعاملة التي أزالت كثيراً من الحدة والحقد والعداء الشديد الذي كان يحمله غالب الصليبيين في بداية قدومهم. وقد قال ابن جبير عن ذلك:.. واختلاط القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين إلى عكا كذلك.. والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب منشغلون في حربهم.. ولا تعترض الرعايا ولا التجار فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً وحربا[١]. وقال أحد الكتاب الغربيين مبيناً تبدل النظرة لدى متأخري

(١) الاعتبار، أسامة بن منقذ ص ١٣٤ - ١٣٥.
(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٥٩ - ٢٦٠.
(٣) النوادر السلطانية ١٦٩ - ١٧٠.
(١) رحلة ابن جبير ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

الصليبيين عن سابقيهم:... ولقد تحدث بعض المؤرخين أمثال وليم كبير أساقفة صور عن الحضارة الإسلامية حديثاً يملؤه الإجلال بل الإعجاب في بعض الأحيان حديثا لو سمعه المحاربون في الحملة الصليبية الأولى لهزمهم وصدم مشاعرهم وكبرياءهم [1]، ولا أدل على تبدل هذه النظرة من سماح الصليبيين للمسلمين الخاضعين لحكمهم من ممارسة شعائرهم الدينية كما في عكا، وطرابلس، وإنطاكية وجبلية وغيرها وكان أسلاف هؤلاء في حملتهم الأولى حينما رأوا لأول مرة مسجداً في القسطنطينية تقام فيه الصلاة أحرقوه بمن فيه [2]، وقد بين توماس آرنولد هذه الحقيقة وهي أنه ليس عامة الصليبيين فحسب هم الذين تغيرت نظرتهم إلى المسلمين، بل إن علماء اللاهوت المسيحي قد أدى اختلاطهم بالمسلمين إلى تكوين رأي أكثر إنصافاً عن الإسلام [3].

٤ – نجاح المسلمين في كسب بعض النصارى الصليبيين:

كان من حسن سياسة نور الدين محمود - مثلاً- مع بعض القادة النصارى أن كسبهم إلى جانبه ضد بني ملتهم ودرأ بذلك خطراً عظيماً عن الإسلام بعدما كادوا أن يتفقوا ضد المسلمين وذلك سنة ٥٤٤هـ [1].

وكذلك صلاح الدين حينما صالح صاحب صيداً حتى جعله يقاتل في صف المسلمين ضد بني ملته -وكان له أثر موجع عليهم- وكذلك

(١) قصة الحضارة (٦٥/٢٢).
(٢) المصدر نفسه (٥٠/٤) دعوة المسلمين للنصارى (٧٥٨/٢).
(٣) دعوة المسلمين للنصارى (٧٥٨/٢).
(١) كتاب الروضتين (١٢٣/١) دعوة المسلمين للنصارى (٧٥٨/٢).

صاحب صُور الذي جاهر بعداء بني ملته [١]، وبعد معركة حطين وما ظهر من نبله وكرمه وصفحه عن بعض قادة الصليبيين أن أقسم بعضهم ألا يواجهه في قتال [٢].

٥ – حسن معاملة النصارى لمن تحت أيديهم من المسلمين:

ومن مظاهر التحسن مثلاً أنه في بعض القرى الواقعة تحت النفوذ الصليبي يتمتع أهلها المسلمون بحكم ذاتي لهم يحكمهم واحد منهم كما هي الحال في جبلية وقد لمس الأحوال المعيشية الهادئة التي تعيشها بعض القرى والمدن الإسلامية تحت الحكم الصليبي ابن جبير حتى أنه خشي على أهلها من الفتنة مقابل بعض الاضطهاد الذي يلاقيه إخوانهم من قبل بعض الولاة المسلمين في بعض المناطق الإسلامية، حيث قال:.. وطريقنا كله ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه - نعوذ بالله من الفتنة - ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم، وكل ما بأيدي الفرنج من المدن بساحل الشام على هذا السبيل، ثم وصف ابن جبير استقرار أحوالهم وخشيته عليهم من الفتنة بالنصارى لذلك حيث قال:.. وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل الرساتيق المسلمين وعمالهم لأنهم ضد أحوالهم في الترفيه والرفق، وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين [١].

---

(١) النوادر السلطانية ص ٢٩٨ المصدر نفسه (٧٥٩/٢).

(٢) قصة الحضارة ت(٣٨/٤) المصدر نفسه (٧٥٩/٢).

(١) رحلة بن جبير ص ٧٤، ٧٥ دعوة المسلمين (٧٦١/٢).

٦ – ظهور عزة الإسلام وتغير التكتيك الصليبي:

كان من أهم آثار الجهود الدعوية هو أن يكون الدين كله لله، وذلك بإقامة شرعه على أرضه وإرشاد الناس إلى سبيله، وكان من أهم آثار الجهود الدعوية المختلفة- خاصة الجهاد في سبيل الله في هذه الفترة- إزالة الحكم الصليبي النصراني من المناطق التي زحف عليها وطرده كلياً وإعادة الحكم الإسلامي فيها وما ترتب على ذلك من إظهار لعزة الإسلام وقوة المسلمين[1]، وهذا ما جعل الأعداء المتربصين من النصارى الصليبيين يعيدون تخطيطهم ويغيرون أساليبهم في محاربة المسلمين وفتنتهم عن دينهم فقرروا لذلك التركيز على الناحية الفكرية بعد مالم تجد الجحافل العسكرية في صرف المسلمين عن دينهم وإقامة دولة نصرانية في قلب البلاد الإسلامية، لذلك تكونت بدايات ما يسمّى بالغزو الفكري للشعوب الإسلامية، فاتجهت الجهود إلى إرسال جحافل من المبشرين الذين يتسللون إلى الشعوب الإسلامية بشكل سلمي ليفتنوهم عن دينهم بالإقناع والتفاهم تحت ستار العمل الخيري، فكان لذلك تأسيس المدارس النصرانية والجماعات التنصيرية لتحقيق هذا الهدف بعدما عجزت عنه القوة العسكرية، وقد كان من أول هذه المؤسسات التبشيرية الرهبنة الكرملية التي تأسست في عام ٥٤٨هـ - ١١٥٤م في طرابلس لبنان، ثم الفرنسيسكان والدومنيكان في مطلع القرن الثالث عشر [1]، ومنذ ذلك الوقت تتابع الدعاة لبث أفكارهم التنصرية في العالم الإسلامي، وقد قال أحد الكتاب الأوروبيين عن ذلك: إذ

(١) دعوة المسلمين للنصارى (٧٦٢/٢).

(١) الأوضاع الحضارية في بلاد الشام ص ١٣٦.

حدث في القرن الثالث عشر أن بدأ نشاط تبشيري ضخم، وهذا النشاط إنما نجم عن الحروب الصليبية والاتصال بالمسلمين [١]، وكانت البداية العملية المنظمة لهذا العمل على يد ريموندلل - وهو إسباني تعلم اللغة العربية وكرس حياته لتنظيم العمل التبشيري بأرضهم- بواسطة دراسة لغتهم والتنصير بينهم، ثم إرسال الجيوش العسكرية بعد ذلك[٢].

٧ – تأجيل إخراج المسلمين من الأندلس:

ساءت أحوال المسلمين في الأندلس من جراء ضعف الخلافة الأموية فيها ومن ثم انتهاؤها سنة ٤٢٢هـ حين أعلن أهل قرطبة إلغاءها وعلى رأسهم جهور بن محمد بن جهور [٣]، قامت على أنقاضها ما يسمى بدول الطوائف التي بلغت عشرين دولة تقريباً حيث تغلب كل على جهة وتلقب بالإمارة، بل والخلافة، فمنهم من تسمى بالمعتضد وبعضهم تسمى بالمأمون وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمتوكل والموفق إلى غير ذلك من الألقاب التي قال عنها الشاعر الحسن بن رشيق:

مما يزهدني في أرض أندلس ::: سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ::: كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد[١]

ومع هذا الوضع المتردي لدول الطوائف أخذت الممالك النصرانية تتوسع على حسابها، فسقطت طليطلة بيد الإذفونش ملك قشتالة وليون

(١) الحروب الصليبية آرنست باركر ص ١٤٢.
(٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس نقلاً عن دعوة المسلمين (٧٦٣/٢).
(٣) دعوة المسلمين للنصارى (٧٦٣/٢.
(١) المصدر نفسه (٧٦٣/٢).

وذلك سنة ٤٧٨ هـ [١]، ولم تلق المساندة الكافية لصد العدوان النصراني عليها من قبل أمراء الدويلات الإسلامية الأخرى التي كانت تتصارع فيما بينها وتخطب ود النصارى حفاظاً على الطموحات الشخصية لبعض أمرائها الذي بلغ الحال بعدد منهم أن استعانوا بالنصارى ضد إخوانهم المسلمين لذلك ساد الفزع بين مسلمي الأندلس لسرعة تقدم النصارى وما يتوقعونه من نهاية سيئة لهم من جراء ذلك حتى عبر أحد الشعراء عن هذه الحالة بعد سقوط طليطلة بقوله:

يا أهل أندلس شدوا رحالكم ::: فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى ::: سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه ::: كيف الحياة مع الحيات في سفط [٢]

ولهذا الوضع المفزع في الأندلس دبت الغيرة في بعض أمراء الطوائف وبعض العلماء لحماية المناطق الإسلامية من النصارى فكانت الدعوة للمرابطين لدخول الأندلس حيث تغيرت الكِفة وانحصر نفوذ النصارى، فكان قدوم ا لمرابطين منقذاً للمسلمين في الأندلس من طمع النصارى ومحافظاً على بقائهم فيها بعد أن أوشك على الزوال، وقد قال عن ذلك أحد المؤرخين الأندلسيين بعدما وصف الأوضاع المضطربة فيها قبل النجدة المرابطية:... إلى أن جمع الله الكلمة ورأب الصدع ونظم الشمل، وحسم الخلاف وأعز الدين، وأعلى كلمة الإسلام، وقطع طمع العدو بيمن نقيبة[١] أمير

(١) نفح الطيب (٣٥٢/٤ - ٣٥٤).

(٢) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (٤٦/١)والسَّفَطُ: وعاء من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الأشياء كالفاكهة ونحوها والجمع أسْفاطٌ. المعجم الوجيز: مادة سَفَطَ.

(١) يمين نقيبة: نقيبة الرجل: سجينة، وطبيعته، ويقال: فلان ميمون النقيبة، المعجم الوجيز: مادة نقب.

المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين [١]، وعبور المرابطين لنجدة إخوانهم مسلمي الأندلس كان في سنة ٤٧٩هـ حيث جرت معركة الزلاقة المشهورة مع النصارى والتي انتصروا فيها واندحر الزحف النصراني على المناطق الإسلامية آخذاً بالتقهقر [٢]، ومنذ ذلك الحين عمل المرابطون على تثبيت سلطانهم في الأندلس وتوحيد الطوائف فيها تحت سيطرتهم والوقوف في مواجهة النصارى وجهادهم في البلاد الأندلسية حتى كان تضعضعهم وضعف سلطانهم إثر سقوط عاصمتهم في المغرب: مدينة مراكش" سنة ٥٤١هـ، وبعد اضطراب أحوال الأندلس طمع النصارى في استغلال ذلك فاجتاز الموحدون إليها وكان لهم الجهد المشكور في مواجهتهم وكبح جماحهم ومن ثم الحفاظ على البقاء الإسلامي في الأندلس [٣]. حتى ضعف سلطانهم ثم سقوط دولتهم في سنة ٦٦٨هـ[٤]، فورثها مجموعة من الدويلات التي تساقطت في أيدي النصارى الواحدة تلو الأخرى حتى كان آخرها سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ[١]، وهكذا فإن جهاد المرابطين ثم الموحدين في فترة الحروب الصليبية كان من أبرز العوامل-بل أهمها- في الحفاظ على الوجود الإسلامي في الأندلس وتأخير إخراج المسلمين منها [٢].

* * *

(١) المعجب في تلخيص المغرب ص ١٤٧ دعوة المسلمين للنصارى (٧٦٤/٢).
(٢) الكامل (٣٠٧/٨ - ٣١٠).
(٣) دعوة المسلمين للنصارى (٧٦٥/٢).
(٤) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب (٤٤٦/١).
(١) التاريخ الأندلسي ص ٥١٣.
(٢) دعوة المسلمين للنصارى (٧٦٥/٢).